عيد الصليب المقدس

راهب
من برية شيهيت

تأملات في ذكصولوجية الصليب:

الصليب مصدر فرح وقوة روحية

بمناسبة عيد الصليب نتأمَّل اليوم في ذكصولوجية الصليب المجيد. وسوف نركِّز على أربعة أرباع تبدأ كلها بعبارة:

"السلام لكَ أيها الصليب" Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲥⲧⲁⲩⲣⲟⲥ

الربع التاسع:

السلام لكَ أيها الصليب سلاح الغلبة	Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲥⲧⲁⲩⲣⲟⲥ ⲡⲓϩⲟⲡⲗⲟⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓϭⲣⲟ

"سلاح الغلبة":

هو سلاح كل مسيحي. فكل منا هو حامل الصليب: **ⲥ̀ⲧⲁⲩⲣⲟⲫⲟⲣⲟⲥ**

الصليب هو عكازنا أي سلاحنا به نغلب العدو. صليب الانسان المسيحي ليس هو صليب من الخشب أو من الجلد، ولكنه استعداده وتصميمه على تحمُّل الآلام في شركة مع الرب المصلوب. تصميم الانسان المسيحي داخل قلبه دون أن يشعر به أحد هو قوَّته. فقلب كل منا يوزن على قدر جديته في تصميمه على أن يشارك الرب في سر آلامه حتى آخر نسمة في حياته.

الصليب سلاح الغلبة:

في الأيقونات القبطية القديمة تجد أحياناً حرف **ϭ** تحت الصليب. وقد ظلَّ العلماء متحيِّرين في معنى هذا الحرف إلى أن وجدوا الكلمة **ϭⲣⲟ** مكتوبة بالكامل

وهي تعني ''الغلبة''. والصليب الطقسي يكون مكتوب عليه: **Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ ⲡⲓϭⲣⲟ** أي يسوع المسيح الغالب. وقد جاءت كذلك باليونانية في سفر الرؤيا عن المسيح أنه «خرج غالباً ولكي يغلب ἐξῆλθε νικῶν, καὶ ἵνα νικήσῃ.» (رؤ ٦: ٢)

الربع التاسع (تابع):

السلام لكَ أيها الصليب: عرش الملك.	**Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓ⳩: ⲡⲓⲑ̀ⲣⲟⲛⲟⲥ ⲙ̀ⲡⲓⲟⲩⲣⲟ.**

كلمة ''**ⲡⲓⲑ̀ⲣⲟⲛⲟⲥ**'' تُذكِّرنا بلحن ''**ⲡⲉⲕⲑ̀ⲣⲟⲛⲟⲥ**'' الذي يُقال يوم الجمعة الكبيرة. كما وتُذكِّرنا بما جاءِ في سفر الرؤيا أنه «في وسط العرش خروف قائم كأنه مذبوح» (رؤ ٥: ٦)، وأن تسابيح السمائيين كلهم حول هذا الخروف ''القائم كأنه مذبوح'' الموجود في وسط العرش.

هذا المنظر في سفر الرؤيا يبيِّن لنا أهمية عيد الصليب، وكيف أنه هو سبق تذوُّق لعيد الأبدية الذي لا ينتهي. لأن كل تماجيد السمائيين حالياً وإلى أبد الأبدين والتي سندخل إليها كلنا بمشيئة الله، تدور وتتركَّز في بؤرة واحدة هي العرش الذي عليه الخروف القائم كأنه مذبوح. وهي عبارة عن تمجيد لغلبة الصليب، أو تمجيد لغلبة الآلام الإلهية، أو هي تمجيد للحب الإلهي الذي ظهر على الصليب. هذا سيكون موضوع تسبيحنا إلى أبد الآبدين، تسبيحاً لا ينتهي ولن نمل منه أو نتوقَّف عنه إلى الأبد.

"عرش الملك":

+ «الرب قد ملك على خشبة» (مز ٩٥: ١٠)

الحقيقة أن المذبح هو نفسه العرش. ففي سفر الرؤيا أحيانا يتكلَّم عن المذبح وأحيانا أخرى عن العرش. فهو مذبح لأن عليه قُدِّم الحمل المذبوح، وهو في الوقت نفسه العرش لأنه بواسطة الحب الذي قدَّمه لنا على الصليب قد ملك على قلوبنا جميعاً. فالصليب هو الذي به تحقَّق ملكوت الله، أي مُلك الله على القلوب. فنحن حين نقول: «ليأتِ ملكوتك»، نعني: "أُملك يا رب على القلوب بواسطة حبك الإلهي". فالصليب هو عرش الملك الذي من فوقه يملك على قلوب جميع محبيه.

الربع العاشر:

السلام لكَ أيها الصليب: علامة الخلاص	Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲥ̅ⲧ̅ⲣ̅ⲟ̅ⲥ̅: ⲡⲓϣⲏⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲟⲩϫⲁⲓ.

إبصالية يوم الجمعة كما ذكرنا من قبل، تقول: "ربنا يسوع المسيح أعطى علامة لعبيده الذين يخافونه لكي يسدوا أفواه الأسود، ولكي يطفئوا قوَّة النار، ولكي يخرجوا الشياطين ...". وهذه العلامة هي الصليب. فنحن نرشم أنفسنا بالصليب، علامة الخلاص، فنخلص من كل شباك العدو.

وقد جاء ذكر كلمة (علامة) أول مرة في الكتاب المقدس في قصة قايين وهابيل وارتبط مفهومها بالنجاة والخلاص من حكم الموت

" وجعل الرب لقايين **علامة** لكي لا يقتله كل من وجده "(تك ٤ :١٥)

وحينما جاءت مريم والقديس يوسف النجار بالطفل يسوع إلى الهيكل, حمله سمعان على زراعيه وأعلن أن عيناه قد أبصرتا الخلاص في المسيح, "وباركهما سمعان وقال لمريم امه ها إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل **ولعلامة** تقاوم." (لو ٢: ٣٤)

وعن مجيء المسيح الثاني قال الكتاب المقدس : " وحينئذ تظهر **علامة** ابن الانسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون إبن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوةٍ ومجدٍ كثير" (مت ٢٤: ٣٠)

وهذه العلامة بها ننجو من وجه قوس الشيطان (ⲡⲛⲟ ⲛⲟⲩⲧⲫⲓⲱ) , والقوس هو ألة حربية قديمة لرمي السهام , تحدث عنها **إرميا النبي** " مد **قوسه** ونصبني كغرض للسهم. " (مرا ٣: ١٢)

" إذن ليتنا لا نخجل بالإعتراف بالمصلوب. لنرسم علامة الصليب ختمنا بشجاعة، بأصابعنا على جباهنا وعلى كل شيء: على الخبز الذي نأكله وعلى الكأس التي نشربها، في دخولنا وفي خروجنا، قبل النوم وعندما نركض وعندما نستيقظ، في الطريق وحيثما حللنا.

عظيم هو هذا السلاح الفعّال. هو مجانًا من أجل الفقراء، يتم بغير عناء من أجل المرضى. إنه علامة المؤمنين، ورعب الشياطين، إذ غلبهم ظافراً بهم جهارًا (كو ٢: ١٥). لأنهم إذ يرون الصليب يتذكرون المصلوب، فيرتعبون من ذاك الذي كسر رؤوس التنانين (مز ٧٤: ١٣). "

القديس كيرلس الأورشليمي

الربع العاشر (تابع):

السلام لكَ أيها الصليب: النور المشرق.	Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲥ̅ⲣ̅ⲟ̅ⲥ̅: ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲉ̀ⲧⲁϥϣⲁⲓ.

+ «النور يُضيء في الظلمة»

النور دائماً عند القديس يوحنا الإنجيلي بالذات يشير إلى الحب الإلهي: «هذا هو الخبر الذي سمعناه منه: إن الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو ١: ٥)، «الله نور»، و«الله محبة» وأيضاً: «الذي يحب أخاه يثبت في النور» (١يو٢: ١٠).

فالنور الذي أشرق هو محبة الله التي أشرقت لنا في وجه يسوع المسيح. والقديس بولس الرسول يقول عنها: «لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح.» (٢كو ٤: ٦)

فمجد الله ظهر كنورٍ على وجه يسوع المصلوب. والمسيح نفسه في حديثه الأخير مع تلاميذه، قبل أن يبتدئ صلاته الأخيرة، وقبل أن يتقدَّم إلى الصليب مباشرة، قال لهم: «تأتي ساعة حين لا أكلِّمكم أيضاً بأمثال، بل أُخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥)، وبعد ذلك صلَّى ثم خرج إلى الصليب. فالمسيح أخبرنا عن الآب علانية على الصليب لما أظهر لنا محبة الآب: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يو ٣: ١٦). فنور الآب أشرق علينا لما رأيناه يتألَّق على وجه المسيح المصلوب، وعرفنا كم أحبنا الآب.

الربع الحادي عشر:

السلام لكَ أيها الصليب: سيف الروح	**Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲥ̅ⲧ̅ⲥ̅: ϯⲥⲏϥⲓ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲡⲓⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅.**

الصليب هو سيف الروح الذي يجرح به الروح قلوب القديسين بالحب الإلهي. وأول مَنْ جُرح قلبها بحب المصلوب هي أُمه العذراء القديسة مريم؛ وتمَّت نبوَّة سمعان الشيخ: «وأنتِ أيضاً يجوز في نفسكِ سيف» (لو ٢: ٣٥). فقد وقفت الأم عند أقدام الصليب وقالت: [أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص، أما أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه يا ابني وإلهي] (قطع الساعة التاسعة)؛ وانجرح قلبها بالحب الإلهي تحت أقدام الصليب.

الربع الحادي عشر (تابع):

السلام لكَ أيها الصليب: ينبوع النِّعم.	**Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲥ̅ⲧ̅ⲥ̅: ϯⲙⲟⲩⲙⲓ ⲛ̀ⲛⲓⲭⲁⲣⲓⲥⲙⲁ.**

"ينبوع النِعَم": أو بمعنى أصح: "ينبوع المواهب"، حيث كلمة **ⲭⲁⲣⲓⲥⲙⲁ** تفيد "المواهب"، مثل مواهب الشفاء والألسنة والترجَمة. فالصليب هو ينبوع المواهب؛ لأنه لا يمكن أن ننال أي موهبة إلا عن طريق الصليب. ولهذا فعندما تأتينا التجارب أو الأحزان ينبغي أن لا نحزن، بل نتقبَّلها ونعرف أن من ورائها موهبة. فهذا هو منهج الآباء الذي بلوره القديس مار إسحق في قوله: إن التجارب هي على قدر المواهب، والمواهب على قدر التجارب، حين يقول:

[إن الله قد رأى بحسن حكمته – التي لا تدركها خلائقه – أن تكون النِعم

بمقدار المحن وليس أن تكون الموهبة عظيمة والتجربة ضعيفة، لأن المواهب مرتبة على قدر التجارب. وهكذا فإنك من خلال الصعوبات والضيقات التي تعرض لك بسياسة من الله تعالى، تقدر أن تدرك مقدار عِظم النعمة التي قبلَتْها نفسك من الله، لأنه بمقدار الحزن تكون التعزية.] (ميامر مار إسحق الجزء الثالث ٥:٤)

فالصليب هو الذي نال به جميع القديسين المواهب عن طريق استعداد قبول الألم في شركة مع المسيح. هذا الاستعداد هو الذي أهَّلهم للدخول في مجال المواهب.

الربع الثاني عشر:

السلام لكَ أيها الصليب: كنْز الخيرات	Ⲭⲉⲣⲉ: ⲡⲓⲑⲏⲥⲁⲩⲣⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲁ̀ⲅⲁⲑⲟⲛ.

الحقيقة أن الصليب هو كنز لجميع النعم الموجودة في الكنيسة. فكل أسرار الكنيسة نابعة من الصليب. القديس يوحنا الرسول في إنجيله يعطي أهمية كبيرة لطعنة الحربة؛ ويعود ويكرِّر هذه الأهمية في رسالته الأولى، حيث يقول: «هذا هو الذي أتى بماءٍ ودمٍ، يسوع المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق ... والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح، والماء، والدم.» (١يو ٥: ٦-٨)

فخروج الماء والدم من جنب المسيح على الصليب كان تعبيراً عن انسكاب الروح القدس على الكنيسة في الأسرار. حيث يقول الآباء إن الماء تعبير عن المعمودية، والدم تعبير عن الإفخارستيا. وبالتالي فالماء والدم معاً تعبير عن أسرار الكنيسة التي

نبعت من جنب المسيح على الصليب. بل إن بعض الآباء يمتدون بهذا الشرح فيقولون إن الكنيسة برمتها ممثلة في سري المعمودية والإفخارستيا خرجت من جنب آدم الثاني (أي المسيح) وهو نائم على الصليب على مثال خروج حواء من جنب آدم الأول وهو نائم.

فكل الأسرار الكنسية هي نتيجة لآلام الرب على الصليب. وفي صلاة التحليل التي تُقال على المعترف، كما تُقال في نهاية رفع البخور وفي القداس الإلهي (سراً)، يقول الكاهن: [أيها السيد الرب يسوع المسيح إلهنا، الذي قطع كل رباطات خطايانا **من قِبَلِ آلامه المخلِّصة المحيية**، الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين قائلاً لهم: اقبلوا الروح القدس، مَنْ غفرتم لهم خطاياهم غُفِرَت لهم ومَنْ أمسكتموها عليهم أُمسِكَت. أنتَ أيضاً الآن يا سيدنا، من قِبَل رسلك الأطهار أعطيت العاملين بالكهنوت في الكنيسة المقدسة أن يغفروا ويحلوا كل رباطات الظلم ...]. فآلام المسيح المخلِّصة المحيية هي التي صارت بالروح القدس ينبوعاً لسلطان الحل والربط المعطَى للكاهن في سر الاعتراف وهكذا فإن كل أسرار الكنيسة نابعة من صليب ربنا يسوع المسيح.

الربع الثاني عشر (تابع):

السلام لكَ أيها الصليب: إلى كمال الدهور.	Ⲭⲉⲣⲉ: ⲡⲓⲑⲏⲥⲁⲩⲣⲟⲥ: ϣⲁ ⲡϫⲱⲕ ⲉⲃⲟⲗ ⲛⲛⲓⲉⲱⲛ.

إلى أبد الآبدين لن نكف عن التسبيح مع الشيوخ الأربعة والعشرين، ومع الحيوانات الأربعة، ومع المئة وأربعة وأربعين ألفاً، ومع الجمع الغفير غير المحصى، حول الخروف القائم كأنه مذبوح. ونقول معهم:

+ «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغِنَى والحكمة والقوَّة والكرامة والمجد والبركة ... مستحق أنتَ أن تأخذ السفر وتفكَ ختومه، لأنكَ ذُبحتَ واشتريتنا لله بدمك ... وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة، فسنملك على الأرض.» (رؤ ٥: ١٢ و٩)

فنحن إلى كمال الدهور لن نكف عن تمجيد آلام الذي ذُبح لأجلنا واشترانا لله بدمه، ربنا يسوع المسيح.

لحن الصليب – لحن الموكب الذي فيه نتبع الرب:

نلاحظ أن لحن ذكصولوجية الصليب يُقال بنغمة المارش، أي بلحن المسيرة في موكب النصرة، وهو نفسه اللحن الذي يُقال في عيد الشعانين. أما في عيد الشعانين فلأن دخول الرب أورشليم كان موكباً احتفالياً، ولكن لماذا يُقال لحن الصليب بنفس لحن المارش أو موكب النصرة مثل عيد الشعانين؟ في الحقيقة إن عيد الصليب هو موكب النصرة الذي نسير فيه وراء الرب.

في ن لحن الثلاثة فتية القديسين: ''نتبعك بكل قلوبنا ⲧⲉⲛⲟⲩⲉⲥ ⲛⲥⲱⲕ''، نذكر عدة آيات وردت فيها هذه العبارة: «اتبعني حاملاً الصليب»؛ وأهمها الآية التي سمعها القديس أنبا أنطونيوس والتي صارت هي الآية التأسيسية للرهبنة: «اذهب بع كل ما لك وأعط الفقراء... وتعالَ اتبعني حاملاً الصليب» (مر١٠: ٢١). فحِمْل الصليب هو العمل الذي نتبع به الرب.

وآية أخرى قالها الرب يسوع أيضاً: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (مت ١٦: ٢٤).

وفي مرة ثالثة في إنجيل القديس لوقا قال الرب: «ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو١٤:٢٧).

وفي مرة رابعة في إنجيل القديس يوحنا، بعدما تكلَّم الرب عن حبة الحنطة، قال: «إن كان أحد يخدمني فليتبعني، وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي» (يو١٢:٢٦).

وهكذا فإن سر الصليب هو مثل تيار جارف يأخذنا وراء الرب بحسب قوله: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢). هذا الجذب هو قوَّة إلهية تشدنا وتجعلنا نتبع الرب، ولكن ليس بغير إرادتنا. فكل واحدٍ منا بإرادته يضع نفسه إما في مجال هذه القوَّة الجاذبة، وإما خارج مجالها.

الصليب قوَّة الله:

الصليب مصدر قوَّة «لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوَّة الله» (١كو ١: ١٨). وكلمة λόγος الواردة في هذه الآية تعني: ''حديث أو منهج أو موضوع''. فمنهج الصليب عند الهالكين جهالة؛ (حيث كلمة ''جهالة = μωρία'' تعني جنون، ومنها جاءت كلمة ''مورستان'') وأما عندنا نحن المخلَّصين فمنهج الصليب هو قوَّة الله.

فالصليب مصدر طاقة حركة لا تنتهي. هذه القوَّة هي التي حرَّكت قلوب جميع القديسين فصاروا قديسين، وغلبوا العالم، وفتنوا المسكونة كما يقول في سفر الأعمال (١٧: ٦). اثنا عشر صياداً استطاعوا أن يُغيِّروا وجه العالم، فبدلاً من أن يكون وثنيًّا صار يتبع صليب الرب.

هذه القوَّة المغيِّرة التي حرَّكت قلوب القديسين هي قوَّة الحب الإلهي التي تتدفَّق من الصليب. فقد كان القديس بولس الرسول مُحقاً حين قال إن كلمة الصليب عندنا نحن المخلَّصين هي قوَّة الله، قوَّة لا تُقهر، بل تستطيع أن تغلب العالم. هذه القوَّة هي التي صنعت القديسين.

وفي موضع آخر يقول: «لكي تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو (أي أبعاد الصليب)، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة» (أف ٣: ١٩). فبقوله «لكي تدركوا مع جميع القديسين» يعني أن هذا الإدراك (لأبعاد الصليب) هو الذي صنع جميع القديسين. أو بمعنى آخر أنه لا يوجد قديس صار قديساً إلا بواسطة إدراك أبعاد الصليب. فما هو الذي عمله أي قديس سوى أنه وقف أمام الصليب وفُتِنَ به واستمدّ منه القوة الروحية؟!

وكما يقول أيضاً القديس بولس الرسول: «لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإيَّاه مصلوباً» (١كو ٢: ٢). فالصليب مسح من عقله كل شيء آخر، ولم يبقَ أي شيء إلا يسوع المسيح وصليبه. فصار في نظر العالم مجنوناً بالحب الإلهي، مجنوناً بمحبة الصليب؛ وأما بحسب منهج الله فقد صارت فيه قوَّة الله.

فمن هذه الآية يمكننا أن نقول إن الصليب كان هو مدرسة القديسين التي تتلمذ فيها جميع القديسين حتى تعلَّموا الحب الإلهي. فالصليب هو معمل تخريج القديسين، وقفوا أمام المصلوب وأحسوا بمقدار الحب الذي في قلبه، فانتقل هذا الحب من قلبه إلى قلوبهم في صورة طاقة لا تُقهر، وصار لسان حالهم: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو ٤: ١٩)؛ «فإن محبة المسيح تحصرنا» (٢كو ٥: ١٤)؛ وأيضاً: «إذ نحن نحسب هذا: أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذاً

ماتوا. وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو ٥: ١٤ و١٥). لقد أحسوا أنه ليس بمقدورهم أن يعيشوا فيما بعد لأنفسهم؛ صاروا مسبيين، الصليب سبى قلوبهم، المسيح سبى قلوبنا بحبه على الصليب!

كذلك يقول القديس بولس الرسول: «لستم لأنفسكم لأنكم اشتُريتم بثمنٍ» (١كو ٦: ٢٠). لم يعد أي واحد منا حرًّا كي يتصرَّف في نفسه. فالذي يقف أمام الصليب يحس أنه لم يعد حرًّا في نفسه بل قد صار عبداً ليسوع المسيح، كما يقول القديس بولس عن نفسه: «بولس عبد يسوع المسيح»، فهي عبودية محبة.

كما أن هذه القوَّة المستمدَّة من الصليب تجعل كل شيء يهون قدامنا. أصعب الأمور تصير هينة وسهلة جدًّا بقوَّة الصليب. فإذا عرفت ذلك، ألا ترى أنها تستحق أن نركِّز كل جهدنا واهتمامنا في اقتنائها!؟

الصليب في حياة القديسين:

والآن نرى خبرات القديسين عن قوَّة الصليب:

القديس إغناطيوس الأنطاكي، الذي تنيَّح حوالي سنة ١١٠م أي بعد القديس يوحنا الحبيب بأقل من عشرة سنوات، يقول:

[لتُحسَب نفسي نفاية من أجل الصليب الذي صار لنا خلاصاً وحياة أبدية][(١)]

هذا يعني: أنني لست أحسب نفسي شيئاً، إن قطَّعوا جسدي أو ألقوني للوحوش

(١) رسالة إغناطيوس إلى أفسس: ١٨.

فحياتي كلها رخيصة جدًّا جدًّا أمام حب يسوع المسيح الذي أحبني به. وهذا الشعور نفسه نجده عند القديس بولس الرسول:

«إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح» (في٣:٨).

وأيضاً: «لست أحتسب لشيء، ولا نفسي ثمينة عندي، حتى أُكمِّل بفرحٍ سعيي» (أع ٢٠: ٢٤).

فكل شيء يهون أمام محبة يسوع على الصليب.

كذلك يذكر سفر الأعمال كيف أخذ أغابوس النبي منطقة بولس وربط بها يدي نفسه ورجليه، وقال: «هذا يقوله الروح القدس: الرجل الذي له هذه المنطقة، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم ويسلِّمونه إلى أيدي الأمم» (أع ٢١: ١١). فبدأ الجميع يطلبون إلى بولس أن لا يصعد إلى أورشليم، فأجاب بولس: «ماذا تفعلون؟ تبكون وتكسرون قلبي، لأني مستعد ليس أن أُربط فقط، بل أن أموت أيضاً في أورشليم لأجل اسم الرب يسوع» (أع ٢١: ١٠ – ١٣). كان هذا سهلاً جدًّا لديه، واعتبره أقل شيء يقدِّمه.

الصليب في سيرة جميع القديسين كان هو الذي يهوِّن كل شيء عندهم. وهذه هي شهادة القديس إيسيذوروس كما جاءت في البستان:

[أنبا إيسيذوروس كان يضفر في كل ليلة حزمة خوص، فسأله الإخوة قائلين: أيها الأب أرِحْ نفسك لأنكَ قد شخت. فأجابهم: لو أحرقوا إيسيذوروس

بالنار وذرُّوا رماده فلن يكون لي فضل لأن ابن الله من أجلي نزل إلى الأرض] (قول ١٧٣).

فحياة إيسيذوروس كانت رخيصة جدًّا عنده، وكان تعبه رخيصاً جدًّا في عينيه: فماذا يساوي أن يضفر حزمة خوص كل ليلة، أو أن يحرقوه ويذروا رماده في الهواء؟! لن يكون لي فضل إزاء ما عمله ابن الله من أجلي!

القديس أنبا مقار يقول ذلك بصيغة جميلة:

[النفس التي تحب الله والمسيح بالحقيقة، حتى إذا عملت عشرة آلاف من أعمال البر فهي تعتبر ذاتها أنها لم تعمل شيئاً] (عظة ١٠:٤).

أي أن النفس التي تحب الله، لأنها وقفت أمام الصليب، وعرفت حب يسوع المسيح على الصليب، وأننا «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً»، وتحرك قلبها بسبب حب المسيح لنا، هذه النفس التي دخل فيها هذا الشعور لو أنها تعمل عشرة آلاف من أعمال البر فهي تعتبر ذاتها أنها لم تعمل شيئاً. فكل عملها، كالصوم مثلاً – وكان البعض يصومون الأسبوع كله – تعتبره كلا شيء، إزاء ما فعله يسوع المسيح من أجلها. والسهر طول الليل تعتبره أيضاً كلا شيء. فمهما عملنا، ومهما تعبنا، ومهما صلينا أو سهرنا ليلة كاملة في الكنيسة أو تأخرنا في الخدمة الكنسية إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشر، فنكون كأننا لم نعمل أي شيء إزاء ما فعله يسوع من أجلنا. فنحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً. فمحبة المسيح تحصرنا، وهي تجعل كل أعمالنا هينة علينا، وتجعل كل ما نعمله رخيصاً جدًّا عندنا إزاء ما فعله المسيح من أجلنا.

والحقيقة أن قول القديس أنبا مقار هذا نراه أيضاً كما في رمز في حياة يعقوب.

لقد خدم يعقوب خاله لابان سبعة سنوات لكي يعطيه ابنته راحيل زوجة. ومكتوب أنه لكونه كان يحب راحيل، فهذه السنوات السبعة كانت عنده مثل أيامٍ قليلة (تك٢٩: ٢٠). لقد هانت لديه الخدمة، وكل التعب الذي قدَّمه لخاله لابان كان رخيصاً جدًّا عنده مثل تعب أيام قليلة لأنه كان يحبها.

هكذا الذي قد دخل في الحب الإلهي، سبعة سنين تمر عليه كأيامٍ قليلة. وكل الآلام التي يحتملها مثل القديس إغناطيوس الأنطاكي وهو عتيد أن يُقدَّم للوحوش، تكون هينةً جدًّا أمامه بسبب حبه الشديد للمسيح.

فعندما ترى هذه الاختبارات التي عاش بها القديسون، يمكنك أن تدرك معنى قول بولس الرسول أن الصليب هو قوَّة الله. وليس الأمر مجرد فهم نظري ولكن قوَّة عملية بالفعل: طاقة حركة تدفعك إلى أن تعمل وتصوم وتصلِّي وتسهر وتعمل مطانيات دون أن تحس أنك تعمل شيئاً. تتحمَّل بكل سهولة أي تجربة تأتي عليك، وتجد أن كل شيء هيِّن بسبب حب المسيح.

خبرة الصليب عند القديس أنطونيوس:

يقول القديس أنطونيوس:

[يا أولادي المحبوبين عندي، أنا أطلب إليكم بمحبتي فيكم أن تتقدموا للرب بكل قلوبكم وبكل نفوسكم، وتعلموا أن كل أعمالنا التي نقدمها للرب بالنعمة التي أعطاها لنا، ليست تقوم مقابل تواضعه عنا.] (رسائل القديس أنطونيوس ٧: ٢)

فإذا كانت هناك داخل قلوبنا محبة للمسيح، وعرفنا كم هو أحبنا، وتحرَّك قلبنا بمحبته، نعلم أن كل أعمالنا التي نقدِّمها له بالنعمة التي أعطاها هو لنا لا تقوم مقابل

تواضعه عنا، لا تساوي أي شيء إزاء ما فعله هو من أجلنا.

وكذلك يقول القديس أنطونيوس عن هذه القوَّة:

[يا أولادي المباركين، اجتهدوا في اقتناء تلك القوة التي بها تعملون جميع أعمالكم براحة وخِفَّة.] (رسائل القديس أنطونيوس ٩: ٢)

حينئذ تجد أنك صرت تعمل جميع أعمال النسك براحةٍ وخفةٍ، فما هو السبب؟ السبب بسيط، فقد قال الرب: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢). فلو وضعت نفسك في مجال هذا الجذب الإلهي، جذب الصليب، لو جعلت قلبك يتجاوب مع قلب المسيح على الصليب، فشيء طبيعي جدًّا أن تصير كل أعمال النسك سهلة أمامك؛ لأنك تنجرف ويحملك التيار! فكلام الرب لن يزول: «السماء والأرض تزولان، أما كلامي فلا يزول» (مت ٢٤: ٣٥)، فقد قال: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع، قال هذا مشيراً إلى أي ميتة كان مزمعاً أن يموت»، أي مشيراً إلى الصليب.

القديس أنطونيوس يقول أيضاً هذا بطريقة أخرى:

[وأنا أُعلِّمكم عملاً آخر يُثبِّت الإنسان من البداية إلى النهاية؛ وهو أن يحب الله من كل قلبه ومن كل نيَّته، ويتعبَّد له. وعند ذلك يعطيه الله قوة عظيمة وفرحاً، وتحلو له جميع أعمال الله مثل الشهد. وهكذا أيضاً كل أتعاب الجسد، والهذيذ والسهر؛ وحِمْل نير الرب يصير عليه خفيفاً حلواً.] (رسائل القديس أنطونيوس ١٨: ٨)

+ «لأن نيري هين وحملي خفيف» (مت ١١: ٣٠)

طرح عيد الصليب:

''السلام للصليب الذي صُلب الرب عليه فبسط يديه وجذب كل أحد إليه''.

وطبعاً هذا مأخوذ من قول الرب: «أجذب إليَّ الجميع».

أما ''دفنار'' عيد الصليب فيقول ذلك بطريقة تصويرية أجمل: ''السلام للصليب حجر المغناطيس الذي اجتذب إليه الجميع''. والحقيقة أن هذا الكلام حق هو؛ لأن الذي يضع نفسه في مجال هذه القوَّة فإنه ينجذب بها كما تنجذب قطعة الحديد بالمغناطيس. ليس المطلوب سوى أن يضع الإنسان نفسه في مجال هذه القوَّة، فهذا هو كل المطلوب منا. إنه غير مطلوب منا أعمال نسكٍ لنجاهد فيها، ولكن المطلوب منا أولاً وقبل كل شيء أن نضع أنفسنا في مجال قوَّة الصليب، قوَّة الحب الإلهي، وبالتالي سنجد أن كل أعمال النسك تأتي من نفسها وتصير سهلة وحلوة ومفرحة.

الصليب مصدر الفرح:

كنا حتى الآن نتكلَّم عن قوَّة الصليب العظيمة. ولكننا نرى القديس أنطونيوس في القول الأخير يتكلَّم عن شيء جديد هو الفرح: [وعند ذلك يعطيه الله قوة عظيمة وفرحاً، وتحلو له جميع أعمال الله مثل الشهد].

والحقيقة إن الصليب مصدر فرح. وهذا من أعظم أسرار الصليب. القديس بولس الرسول يذكر في عدة مواضع مضادة تتركَّز في كلمتين: «أفرح في آلامي». الألم بطبيعته مرتبط بالحزن، فكيف يرتبط هنا بالفرح؟! هذا هو سر الصليب أنني أفرح في آلامي!

الصليب مصدر كل حلاوة!

يقول طرح عيد الصليب:

''السلام للصليب الذي جُعل في مياه مُرَّة فحليت وشربت منها الشعوب المؤمنة''.

ونحن نجد هذا المعنى أيضاً عند القديس كيرلس الكبير حيث يقول عن عصا موسى التي أُلقيت في المياه المرَّة في مارَّة (خر ١٥: ٢٣) فحليت واستطاعوا أن يشربوا منها:

[إن مياه مارة كانت مرة حقاً، ولكنها حليت لما أظهر الله عصا لموسى الطوباوي وأمره أن يلقيها في المياه. وأما هذه العصا فكانت صورة ومثالاً للصليب الكريم][٢]

الحقيقة أن في هذه القصة سراً عميقاً. إنه سر تحويل الآلام والإهانات إلى شيء حلو ومستساغ الطعم، سر تحويل كل مرارات هذه الدنيا التي تقابلنا إلى حلاوات. الصليب هو مثل مسحوق سحري تضعه على أي شيء مُر ثم تذوقه فتجده حلواً ومستساغاً. إن شتمك أحد أو أهانك، ضع نقطتين من محلول الصليب تجد كأنك وضعت عصا موسى في المياه المرة فحليت وصار بإمكانك أن تشرب منها وترتوي، وتنال منها حياة أبدية.

قف بضعة دقائق أمام الصليب، أمام الحبيب الذي أحبنا واحتمل كل هذه الآلام من أجلنا، ستجد أن كل ما أصابك قليل جدًّا، ويُحسب نفاية وكلا شيء، حتى لو

---

(٢) شرح عاموس ٦:٩ PG71,572

أنهم يحرقونني ويذرُّون رمادي في الهواء (كما يقول القديس إيسيذوروس) لا يُحسب ذلك شيئاً ؛ حتى لو أنني أعمل عشرة آلاف من الأعمال (كما يقول أنبا مقار)، فلا أعتبر نفسي أنني عملت شيئاًً إزاء ما فعله يسوع من أجلي.

قف أمام الصليب، فستجد أن كل المرارات التي أصابتك قليلة جدًّا جدًّا، بل هي بالعكس فخرٌ لكَ أن يعطيك المسيح أن تكون شريك آلامه.

فرح الشركة في آلام المسيح:

هو منهج في الإنجيل متّسع جداً، ولا نستطيع أن نستعرض كل الآيات التي تدور حوله. ولكن نكتفي هنا ببعض الأمثلة فقط.

يقول القديس بولس الرسول: «أفرح في آلامي لأجلكم، وأُكمِّل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده، الذي هو الكنيسة» (كو ١: ٢٤). لماذا تفرح يا بولس في آلامك؟! إنني أفرح لأني أحس أن آلامي تثمر في جسد المسيح الذي هو الكنيسة وتجعلها تزدهر وتنتعش، فأحس أن آلامي هذه لما تكون في شركة مع آلام المسيح تصير مثمرة، لأن آلام المسيح آلام مثمرة. إنهم يصوِّرون الصليب كخشبة أو شجرة ازدهرت وأعطت ثمراً. فهذا تصوير لقول القديس بولس الرسول إن آلام المسيح هي التي أثمرت في الكنيسة وجعلتها كرمة مثمرة، وأنا حينما أشترك مع المسيح في آلامه أشترك معه أيضاً في إعطاء الثمر.

«بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي» (يو ١٥: ٨). وهذا الثمر الكثير لا يمكن أن تحصلوا عليه إلا عندما تصيرون مثلي كحبة الحنطة التي إن لم تقع في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكنها إن ماتت تأتي بثمرٍ كثير (يو ١٢: ٢٤).

وهكذا كانت آلام القديس بولس الرسول تكمِّل نقائص شدائد المسيح في جسمه لأجل جسده الذي هو الكنيسة، فكيف لا يفرح؟! كيف لا أفرح عندما أعرف أن آلامي سوف تثمر في الكنيسة وتجعل تعزية الروح القدس تنسكب بغنى على الكنيسة كلها. إنني طبعاً أفرح بآلامي عندما أرى هذا الثمر الكثير.

لذلك يقول القديس بطرس الرسول: «كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده مبتهجين» (١بط ٤: ١٣).

«في ضيق شديد، بفرح الروح القدس»:

وكذلك يقول القديس بولس الرسول: «وأنتم صرتم متمثِّلين بنا وبالرب، إذ قبلتم الكلمة في ضيق كثير، بفرح الروح القدس.» (١تس ١: ٦)

والذي نلاحظه في هذه الآية هو ارتباط الضيق الكثير مع فرح الروح. فالذي استطاع أن يُضفِّر الضيق الشديد مع الفرح الكثير ويجعلهما يلتحمان معاً هو الروح القدس. فيقول القديس بولس إنكم صرتم متمثِّلين بنا، لأنني أنا أفرح بآلامي، ومتمثِّلين بالرب، لأن المسيح أيضاً فرح في آلامه على الصليب: «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢: ٢)

فبصليب ربنا يسوع المسيح، لما احتمل هو معنا الآلام، تغيَّرت هذه الآلام عن طبيعتها المحزنة الكئيبة التي كان فيها طابع اللعنة: «ملعون كل مَنْ عُلِّق على خشبة». فقد تغيَّرت وفقدت طابع اللعنة المسموم الذي كان فيها، وصارت بالعكس آلاماً تأتي بثمرٍ كثير في الكنيسة كلها: «أفرح في آلامي من أجل جسده الذي هو الكنيسة». ولهذا نرى القديس يعقوب الرسول يقول أيضاً: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة.» (يع ١: ٢)

كيف نفرح بالألم؟

جميع هذه الآيات التي ذكرناها تحمل مضادة اجتماع الألم مع الفرح، وتجعل الكلام غير معقول منطقيًّا، وذلك «لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة». فمنهج الصليب منهج غير منطقي على الإطلاق. كيف نفرح بالألم، وكيف «احسبوه كل فرحٍ يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة»؟! هذا كلام غير منطقي على الإطلاق إذا دخلتَ إليه من باب الحكمة البشرية، وأما عندنا نحن المخلَّصين فهو «قوَّة الله»، فلأن ابن الله ذاق هذه الآلام، تحوَّلت عن طابعها الذي فيه اللعنة المشئومة واكتسبت طابع الفرح والثمر الكثير.

هذه هي القوَّة المحوِّلة الجبارة اللانهائية الموجودة في الصليب والمعروض علينا أن نأخذها حينما نقف بخشوعٍ أمام المصلوب دقائق قليلة بصلاةٍ من كل القلب فنجد فيه مقدار الحب اللانهائي الذي أحبنا به. فينتقل إلينا الحب الموجود في قلبه بحسب وعده: «جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد إلا أن تضطرم» (لو١٢: ٤٩)

هذه النار الإلهية تنتقل من قلب ابن الله المصلوب على الصليب إلى قلوبنا، وبالتالي تصير فينا قوَّة كبيرة، ''قوَّة الله''، التي تدفعنا إلى احتمال كل الآلام بفرح، وتصير فينا قوَّة محوِّلة لا تُقهر لتحويل كل المرارات إلى حلاوات، وكل الأحزان إلى أفراح. وعوض أن نقول ''نحزن في آلامنا''، نقول: «نفرح في آلامنا». وبدلاً من أن نحزن للمهانة أو الشتيمة التي تلحقنا، نستطيع أن نستمد منها ترياق الحياة بدلاً من السم المميت الذي كانت تحتويه، ونتلذذ بها ونمتص منها عصارة الحياة.

الصليب محيي:

هكذا تدعوه الذكصولوجية: ''الصليب المحيي ⲣⲉϥⲧⲁⲛϧⲟ''. فالصليب مصدر حياة أبدية، ونحن نستمد منه قوَّة حياة. فالذي كان مصدر موت ولعنة، لأن الألم بطبيعته يؤدِّي إلى الموت، صار الآن مصدر حياة أبدية. فهذا هو صليب ربنا يسوع المسيح، ومنذ أن تألَّم معنا تغيَّرت طبيعة الآلام واكتسبت الطابع السماوي الإلهي الذي يوصِّلنا إلى الحياة الأبدية.

نطلب من الرب يسوع المسيح في عيد صليبه المجيد أن يحرِّك قلوبنا بحبه الإلهي، ويجعلنا نتفاعل مع صليبه المحيي ونستمد منه قوَّة حياة أبدية. وبالتالي نفرح في كل الآلام التي ستقابلنا في هذه السنة المقبلة ونستطيع أن نستمد منها نعمة وحياة أبدية. له المجد إلى الأبد آمين.

✠ ✠ ✠

+ «فنظر إليه يسوع وأحبه، وقال له ... تعالَ اتبعني حاملاً الصليب.» (مر ١٠: ٢١)

فالصليب موهبة خاصة يعطيها المسيح لمن يحبه. وهو يشرك الإنسان الذي يحبه في صليبه، وعند ذلك يشركه في حبه. والصليب هو خصوصية من خصوصيات المسيح التي تخصه جدًّا في داخل قلبه، والتي لا يُظهرها لكل إنسان بل للشخص الذي يحبه فقط

✠ ✠ ✠

- ليس القديس هو ذلك الشخص الذي يصنع المعجزات، بل هو الذي دخل معصرة الآلام، وانسحق تحت رحاها، وتعذَّب من مرارتها، ثم خرج منها وهو

أكثر قرباً والتصاقاً بالله، وقد ازداد نقاوة وتجديداً وتأهيلاً للملكوت.

- الآلام علامة صحية لسلامة الطريق، وهي ضمان لأمان المسيرة. وكلما كثرت الآلام كلما زادت الأمجاد.

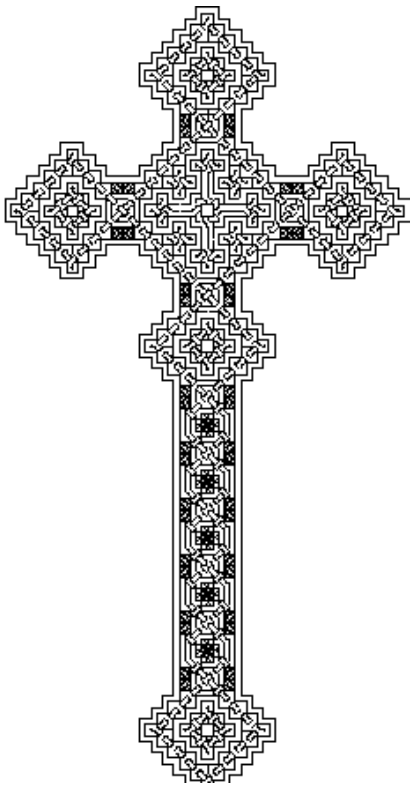

عيد الصليب..
هناك تناقض في هذا العنوان..

كيف هو صليب؛ و كيف نعيد له؟! الصليب، بالنسبة للذهن العادي، أكبر مصيبة ممكن أن تحدث لإنسان. فكيف يقول بولس الرسول *"أما من جهتي فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح"* (غل ٦: ١٤).

كيف نفتخر بالصليب؟! يمكن أن تفتخر بالقيامة فهذا معقول، ولكن الافتخار بالصليب صعب جداً. وما هو وجه الفخر بالصليب؟ لماذا نعيد للصليب؟ ولماذا نفتخر بالصليب؟ وكيف أن الصليب مصدر فرح ومصدر مجد وفخر لنا؟!

لا توجد إجابة سوي أن الصليب هو استعلان حب المسيح الفائق المعرفة. أما أية إجابة أخري فسوف تعود لنفس هذه النقطة.